الحركة العقلية في المذهب الظاهري وأثرها على اللغة على عهد ملوك الطوائف ابن مضاء القرطبي أنموذجا (511_592هـ/1118_1196م)

الدكتور بلقاسم بن عودة، جامعة ابن خلدون، تيارت

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث دراسة عن المذهب الظاهري (ابن حزم الأندلسي) الذي انتشر في بلاد الأندلس على عهد ملوك الطوائف ثم بعدها في المغرب على عهد الدولة الموحدية والذي قام على أساس الأخذ بظاهر النص والاعتماد عليه كأصل من أصول العلوم لا سيما في الفقه الاسلامي ، ثم انتقل هذا الأصل إلى علوم الأخرى وعلى غرارها اللغة العربية التي تأثر ثلة من علماؤها بهذا المنهج وعلى رأسهم ابن مضاء القرطبي والذي أقام ثورة على النحاة من خلال كتابه (الرد على النحاة) وكيف انعكست أفكاره الظاهرية على اللغة العربية .

Abstract: This research deals with the study of the virtual doctrine (Ibn Hazm Andalusi), which spread in the country of Andalusia under the sect kings and then in Morocco at the time of the Almowahad state, which was based on the adoption of the apparent text and rely on it as an asset of science, especially in Islamic jurisprudence, This origin, then moved to other sciences, namely the Arabic language, which influenced a number of its scientists in this approach, headed by the son of Muthaa El-Qurtubi, who revolutionized the grammarians through his book (Responding to the grammarians) and how his ideas reflected on the Arabic language.

توطئة: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبحمد وشكره تحفظ النعم وتستر الزلات

وتقال العثرات وبكفره وجحوده يتضاعف عذاب الاله الواحد الأحد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

إن الأمم الراقية لا ترضى ولا تستطيع أن تنسلخ عن تاريخها، ذلك لأن التاريخ هو وعاء ثقافتها وحضارتها، وفي حقب هذا التاريخ نشأت ونمت وتطورت واجتازت محنا حققت مجدا وبنت حضارة وقدمت فكرا، والتراث العلمي الذي عرفته الأندلس هو ثمرة العقول الأندلسية التي وصلت إلى أرقى وأسمى مرتبة في العالم الإسلامي، ولعل فترة الدولة الأموية بالأندلس هي نموذج لمدى تقدم الحضارة العربية الإسلامية حيث أصبحت هذه الفترة من أزهى عصور الدولة الاسلامية، وبقدر ما كانت الفترة الاموية مرحلة ازدهارا علمي وفكري، كانت الفترة التي تلتها مرحلة لاستكمال ما بدأت به الدولة الأموية، بالرغم من الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي كانت تقع حاجزا أمام هذه المرحلة العلمية، لكن هذا لم يمنع من ظهور العديد من المفكرين والعلماء الذين كان لهم بصمة في ذلك العصر أي عصر ملوك الطوائف.

ومما يجدر الاشارة إليه أن الحياة العلمية بالأندلس ظهرت فيها أطياف متنوعة من المذاهب كمذهب الأوزاعي والمذهب المالكي وغيرها ... لكن العقل قد أثر على الذهنية العلمية الأندلسية مما جعل مدرسة علم الكلام تنتشر بقوة لا سيما جملة من الفلاسفة كالفيلسوف ابن رشد وابن الطفيل وغيرهم من الفلاسفة الذين مزجوا العلوم الاسلامية بالفلسفة مما جعلهم يكمون العقل على امور الشرعيات المختلفة لا سيما الفقه الاسلامي الذي تأثروا من خلاله بالمذهب الظاهري ووجدوا فيه مناسبة لأفكارهم التي تمشي في السياق الفلسفي نفسه.

المذهب الظاهري:

ظهر بالمشرق فأول من كان ظاهرياً خالصاً، هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصفهاني. وقد كان شافعياً أول أمره، بل هو أول من صنف في مناقب الشافعي. ولد

بالكوفة عام 202هـ، وتوفي ببغداد عام 270هـ وتلقى العلم ببغداد على يد أبي ثور وإسحاق بن راهويه وعدد من تلاميذ الشافعي وسمع الكثير من الحديث ثم اتجه للظاهر وأنكر القياس فهو يعتبر بإجماع العلماء أول من أظهر القول بظاهرية الشريعة بين أهل السنة، إلا أنه اختفى بعد مدة حتى جدده و أعاد له أهميته مؤسسه الثاني ابن حزم الأندلسي، و هو مذهب أصوله : الكتاب و السنة و إجماع الصحابة ، ليس لأحد فيه أن يقلد أحدا، نشأ للحفاظ على النصوص و الوقوف عندها وعدم تجاوزها ، والظاهر يقصد به ظاهر اللفظ من ناحية اللغة ، أي ضرورة الأخذ بالمعنى اللفظي الظاهر للكلام، حيث أن تجاوز النص يعتبر تبديلا لكلام الله **(عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة النهضة، القاهرة، ب ط، 1984م ، ص 231-232)**

ويقوم هذا المذهب أساسا على أن الأصل في الفقه هو ظاهر النصوص من الكتاب والسنة، ولا يؤخذ فيه المعنى من خلال التأويل للنصوص والغور في معانيها على أساس أن القرآن بين والسنة هي شارحة لما أغفل من آياته. فليس في هذا المذهب لا قياس، ولا استحسان، ولا ذرائع، ولا مصالح مرسلة. ولعل من أبرز المذاهب التي تقترب من هذا المذهب هو مدرسة الراي للإمام أبي حنيفة النعمان وسفيان الثوري وغيرهم من جهابذة علم الرأي ومذهب مالك وشيخه ربيعة الرأي. و كثير من أهل الحديث عنده ظاهرية، لكن ليس فيهم من هو ظاهري خالص. وهناك مذاهب تمزج بين الأمرين مثل مذاهب الشافعي والليث والأوزاعي وغيرهم. ومن الملاحظ أن كثيراً من الظاهريين أصله شافعي، مع أن مذهب الليث أميل لمذهب الظاهر من مذهب الشافعي. ويظهر أن السبب هو جودة رد الشافعي على من يستحسن برأيه **(عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، ص 233 وما يليها بتصرف)**.

ابن حزم الأندلسي وانتشار الظاهرية:

ابن حزم : أبو محمد علي ابن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن

معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل **(شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، لبنان، مؤسسة الرسالة، 1994، ط10، ج18 ، ص 184-185)** ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي المعروف يزيد الخير نائب أمير المؤمنين أبي حفص على دمشقي، الفقيه الحافظ، المتكلم الأديب الوزير الظاهري، صاحب التصانيف، فكان جده يزيد مولى لأمير يزيد اخو معاوية **(محمد المنتصر الكتاني: موسوعة التقريب: فقه ابن حزم الظاهري، القاهرة، 1992، ط1، ج1، ص12.)** كان جده خلف ابن معدان هو أول من دخل الأندلس ملك الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل. **(عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي: الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر عصر ملوك الطوائف، لبنان، 1992، ج4، ط3، ص 535.)** ولد كما كتب بخط يده- بقرطبة في الجانب الشرقي من ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح، آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان المعظم سنة 384هـ الموافق لـ994م، هذا ما كتبه بخط يده إلى احمد الحنبلي صاحب كتاب أخبار الحكماء.(**ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، لبنان، مكتبة المعارف، 1991م، ج11، ص91.)**

نشأ في بيئة ثرية ولم يكن في حاجة إلى طلب الرزق فكل ما تمناه كان بين يديه موفورا بسبب ما خلفه له أبوه من ضيعات، إذ كان ثريا يعيش حياة مترفة وكأنه وزيرا ، وان العبارة التي اجمع المؤرخون عليها وهي إن القرية التي مات فيها كان ملكها أبائه ثم آلت إليه ملكيتها تدل أنه عاش موفور الرزق إلى أن انتقل إلى رحمة الله وانه في جملة حياته كان يعيش في رافع العيش، وان قل نسبيا في بعض أوقات الزمان، للسجن والتغريب وعدم قيام احد على هذه الأمور ليدوم درها، أو لذهاب لبعض الدور التي كانت لأسرته في قرطبة (**فاروق عبد المعطي، أعلام الفقهاء والمحدثين. ابن حزم الظاهري. علي بن أحمد بن سعيد الأموي الأندلسي، لبنان، 1995م، ص 27-28.)**

كما إنه كان من أسرة عملت في السياسة وكان لأبيه فيها شان وكان يلقى العلماء وأهل المعرفة ويتفقه بعلمهم أو يجادلهم أحيانا إذ عرف بمهرته الجدلية العالية ومن ظريف مجادلاته

أنه حينما ذهب إلى جزيرة ميورقة وقد لجأ ابن حزم إلى راعية عاملها ابن رشيق (ت **440** هـ) ناظره هناك الفقيه المالكي أبو الوليد الباجي فقال الباجي لابن حزم « أنا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق فقال اين حزم : هذا الكلام عليك لا لك لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرجو به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة – فأفحمه – » **(أحمد بن المقري التلمساني، النفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، لبنان، دار البصائر، ط1، 1988م، ، مج2، ص 238.)**

وكان ذا بصر بعلوم كثيرة من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في أنواع من العلوم القديمة كالمنطق والفلسفة. كما أن لابن حزم دراسات نفسية وخلقية، وقد وضحت الدراسة النفسية في كتابه طوق الحمامة ووضحت دراسته الخلقية في رسالة مداواة النفوس. وقد أفادنا ابن حزم بمؤلفات كثيرة نافعة في كثير من العلوم الدينية وغير الدينية. قال عنه القاضي صاعد بن أحمد: كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة... وأخبرني ابنه الفضل قال: اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة. وكان هذا العالم مخلصاً في طلب العلم وتبليغه، فهو ينطق بما يعتقد أنه الحق، غير هيابٍ لأحد **(أحمد بن المقري التلمساني، النفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مج2، ص 240)**.

مذهبه الفقهي:

اتجه ابن حزم في البداية إلى المذهب المالكي الذي كان سائدا في الأندلس فوق انه المذهب الرسمي للدولة، ولقد روى إن ابن حزم قال: إن مذهبين انتشرا بقوة السلطان، مذهب أبي حنيفة بالمشرق ومذهب مالك بالمغرب، فكان من مقتضى المنطق أن يتجه ابن حزم إلى المذهب المالكي، بل كان المنطق أن يوجه إليه، ولقد قرأ الموطأ على عبد الله بن دحون، وقد

تتابعت قراءته الفقه عليه وعلى غيره من العلماء ولكن يظهر إن ابن حزم القارئ الباحث قد اطلع على نقد محمد بن إدريس الشافعي لمذهب الإمام مالك وان كان شيخه، فقد روى عنه انه قال مقالة أرسطو في أفلاطون: أحب مالكا ولكن محبتي للحق أكثر من محبتي لمالك، لا بد انه قرأ كتاب اختلاف مالك، الذي جاء فيه أن مالكا جعل الفرع أصلا والأصل فرعا، ولا بد انه علم إن الشافعي تردد في نقد مالك حتى علم أن بعض أهل الأندلس يستسقون بقلنسوة مالك، فاستخار الله وكتب نقده ليبين للناس أن مالكا بشر من البشر.لا بد انه قرأ فيما قرأ ذلك، حتى انتقل من المذهب المالكي إلى المذهب الشافعي فان ذلك يرضي نزعته الفكرية، ورغبته الشديدة في الانتقال الفكري والتحرر من القيود إلا ما كان من صاحب الشريعة صلى الله علية وسلم(**عبد الرحمن أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره- آرائه وفقهه، دار الفكر العربي، 1978، ص 35.)**

تأثيراته على الحياة العامة.

لقد أثر المذهب الظاهري في شتى مناحي الحياة سواءً العلمية منها أو الحياة العامة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وغيرها ، ويكمن القول أن هذا التأثير لم يكن تأثيرا في حياته فحسب بل هو تأثير حتى بعد مماته:

أ) التأثيرات في حياته: أثر ابن حزم في الذهنية الأندلسية وناسب مذهب الهوى الأندلسي وطبائع الناس في هذه البلاد التي كثر فيها حياة الترف والملذات لا سيما أن عصره كان نهاية الخلافة الأموية المركزية وانهيارها وبداية لعصر ملوك الطوائف والذي تميز باللهو والمجون وانتشار مراكزه والتوغل في حياة البذخ والترف بسبب الثراء المطغي لأهل الأندلس حكاما كانوا أو محكومين لذا كان تأثيره شاملا مما جعل العامة يستمعون للمبادي التي جاء بها في مذهبه ، وهذا ما جعل الفقهاء يتألبون ضده كما أسلفنا الذكر فكانوا يؤاخذونه في مخالفته للمذهب المالكي الذي كان سائدا آنذاك، فوجد حركة معاكسة لمذهبه وتيارا مناوئا لأبعد الحدود ، فكلما دخل مدينة إلا ووجد هذا التيار المعاكس وقامو بتأليم الأمراء عليه، إلى

وصل اشبيلية فحلت به مصيبة أثرت على مذهبه ، لم تنتهي آثارها حتى بعد وفاته بمدة، وهي قيام المعتضد حاكم اشبيلية باحراق كتبه **(عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، المرجع السابق، ص228-229.)**

وقد ذكر عبد الرحمن ابن خلدون حينما تحدث عن المذهب الظاهري أنه: تم تدريس أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وإنكار الجمهور على منتحله، ولم يبق إلا في الكتب المجلدة، وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يخلو بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين، وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علو رتبته في حفظ الحديث و صار إلى مذهب أهل الظاهر، ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف إمامهم داود، وتعرض للكثير من أئمة المسلمين، فنقم الناس بذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجانا و انكارا و تلقوا كتبه بالإغفال والترك حتى أنها ليحظر بيعها بالأسواق، وربما تمزق في بعض الأحيان (**عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج1، دار الفكر، بيروت، ب ط، 2001م، ص 374**).

ومما زاد في اختفاء المذهب الظاهري وابتعاد الناس عنه تأليف بعض الفقهاء والعلماء مؤلفات ترد على كتب ابن حزم وتنقدها، مثل كتابي العواصم من القواصم والنواهي عن الدواهي لابن العربي، ورسالته الغرة التي رد فيها على رسالة ابن حزم التي عنوانها الدرة، حيث يذكر في كتاب العواصم: أنه بينما عاد من رحلته بالمشرق إلى المغرب، وجد سخيفا من بادية اشبيلية يعرف بابن حزم، نشأ وتعلق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل مستقلا بنفسه، وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع ويحكم لنفسه، ويشرع وينسب إلى دين الله ما ليس منه...(**أحمد بكير محمود، المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب، دار قتيبة، بيروت- دمشق، ط1، 1990م، ص54- 55**).

ب/ بعد وفاة ابن حزم: لقد ترك ابن حزم كتبا مدونة، نسخت منها العديد من النسخ، كما استطاع أن يكون جيلا من التلاميذ نشروا مذهبه إلى حد ما، وأول من اتجه إلى ذلك تلميذه الحميدي، الذي جمع الصحيحين بخاري ومسلم، فإنه هرب من الأندلس بعد وفاة ابن حزم **(محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، المرجع السابق، ص557)**، وهنالك أيضا تلميذه ابن دحية، الذي طاف أقاليم الأندلس كلها، ثم انتقل إلى مصر في عهد الأيوبيين، ومنها إلى الشام والعراق، طلب الحديث وألف الكتب، وكذلك محي الدين ابن العربي، الذي كان معاصرا لابن دحية، وعاش أيام ازدهار المذهب الظاهري في عهد الموحدين، قام برحلات كثيرة، فقد سافر إلى المشرق ووصل إلى العديد من البلدان، قال المقري عنه: كان ظاهريا في العبادات، باطنيا في الاعتقادات **(المقري، المصدر السابق، ص164)** . وقد ساهمت شخصية يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، في تغيير نظرة أهل الأندلس إلى المذهب الظاهري، فقد عمم العمل به أثناء حكمه للأندلس، حيث كان ابن حزم موضع تقدير بالنسبة ليعقوب، فقد زار قبره عندما دخل الأندلس **(محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، المرجع السابق، ص558)**

ومما يجدر الاشارة اليه كعامل بين من انتشار هذا المذهب أنه تأثر به الكثير من علماء ذلك الزمان لا سيما علماء اللغة العربية الذين تأثروا بالذهنية الأندلسية وانعكس في أعمالهم اللغوية ومن أبرز الذين تأثروا بهذا المذهب : الفضل بن علي (ت 479 هـ) وهو الاين الوحيد لابن حزم الذي انتهج منهج ابيه وتأثر به ، والحافظ الحميدي (ت 488هـ): أبوعبد الله محمد بن نصر الحميدي الميورقي وكان قد سمع بالأندلس من ابن عبد البر النمري، كما أخذ عن ابن حزم ولازمه طويلا، وهو أكبر من أخذ عليه فقه الظاهرية بالأندلس، وصار على مذهبه، و الفقيه أبو بكر محمد بالحسين الأنصاري (ت 512 هـ) الذي كان ظاهريا ولعله كان يُظْهر ظاهريته حتى طلبه يوسف بن تاشفين ، وكانت الدولة المرابطية مالكية المذهب غيورة عليه، ففر إلى بجاية مختفيا هناك انتصب لتدريس الحديث، و محي الدين بن عربي (ت 638هـ) الذي تأثر أيضا بالظاهرية ونهل من أفكارهم فقد انتقل إلى اشبيلية سنة ثمان وستون و كان عمره حينها ثمانية أعوام فالتقى صفوة علمائها، فدرس علوم الحديث

والفقه واللغة، فنشأ على المذهب الظاهري (**أحمد بكير محمود، المرجع السابق، ص55 – 56 بتصرف**).

ومن العلماء أيضا عمر بن الحسن بن علي بن محمد أبو الخطاب (633 هـ) كان من أعيان بلنسية وعلمائها وحفاظها، عالما باللغة وأيام العرب وأشعارهم وكان يشبه ابن حزم في الوقوع في علماء الأمة، ويفاضل بين الأصحاب الذين حضروا صفين فترك الناس كتبه وأقواله، من أهم كتبه: التنوير في مولد السراج المنير، العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور، كتاب شرح أسماء النبي، توفي عام ثلاث وستون وستمائة هجري بالقاهرة ودفن بسفح المقطم (**أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: احسان عباس، ج3، دار صادر، بيروت، ب ط، 1968م، ص448**).

ومن علماء اللغة ابن مضاء القرطبي (ت 592 هـ) (**الذي سيتم الحديث عنه في الأنموذج**) ، وأبو حيان النحوي وهو محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي الجياني التغري، المعروف بأثير الدين، ولد عام أربع وخمسون وستمائة هجري، له مكانة مشهورة في النحو، كان يقول محال أن يرجع عن مذهب الظاهر لتعلقه به، رحل إلى مصر وروى جميع كتب ابن حزم لتلامذته بها (**أحمد بكير محمود، المرجع السابق، ص 61**)

ومن هنا يتضح أن علماء اللغة كانوا من المتأثرين بالمذهب الظاهري الذي كان يأخذ بظاهر النص ولا يتعمقون في معانيه وهنا بدأت فكرة الثورة على النحو تظهر في الأندلس فخرجت جيلا من علماء اللغة حاولوا التغيير في صياغة النحو ومحو جميع تعقيداته كما زعموا في محاولة لتسيره وجعله مادة علمية سهلة المنال وبخاصة لطلاب العلم الذين لا يتقنون اللغة العربية وكانوا يقصدون الأندلس من كل صوب وحدب.

ومن أبرز هذه الثورات التي كان لها صدى في الأندلس هي ثورة ابن مضاء القرطبي:

ابن مضاء القرطبي وتأثره بالمذهب الظاهري:

ابن مضاء القرطبي: هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد، ابن مضاء، ابن عمير اللخمي القرطبي، أبو العباس ولد بقرطبة سنة (511 هـ) أما أصله فهو من قرى شذونة الأندلسية، تلقى العلم على علماء قرطبة وتأثر بالمذهب الظاهري تابعا لأستاذه وشيخه ابن حزم فأصبح فقيها ظاهريا وعالما بالطب والهندسة والحساب واللغة العربية والشعر وأخبار العرب وانتهى المطاف به أن أصبح حجة في الفقه الظاهري، وهو مذهب دولة الموحدين الذين حكموا المغرب والأندلس (541 – 668 هـ) فولوه أولاً قضاء فاس وبجاية، ثم ما لبث الأمير يوسف بن عبد المؤمن 580 هـ أن جعله قاضي الجماعة في الدولة كلها، ويوسف هذا عُرف بتعصبه للمذهب الظاهري، وظل ابن مضاء في هذا المنصب إلى أن توفي في عهد الأمير يعقوب بن يوسف 595 هـ. **(خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين (2002) / ط15 ، ج1، ص 146 بتصرف)**

ولا يدل توجهه نحو النحو وعلوم اللغة العربية إلا لتأثره بالظاهرية في الفقه فكان ذلك ظاهرا وجليا وعليه فقد ثار على النحاة وألف كتابه الشهير **(الرد على النحاة)** الذي يعتبره الكثير من النقاد أنه صغير الحجم كبير الغاية والمنفعة حيث دعا فيه إلى التجديد النحوي والفقهي أيضا إلا أن ثورته على النحو مانت أشد عنفا من تلك الثورة على الفقه فظهرت الأولى واختفت الثانية **(ينظر: ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، تح: شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط2 ، ص 4-5 بتصرف « مقدمة المحقق»)** وقد حقق الكتاب الدكتور شوقي ضيف رحمه الله تعالى وعلق عليه الذي كان نظرته للنحو مشابهة تماما لثورة ابن مضاء وجهوده التيسيرية متقاطعة مع جهوده ، وقد كانت دولة الموحدين متبنية للمذهب الظاهري تتزعم مختلف الثورات القامة من الظاهرية مما ساعده على نشر أفكار والمضي قدما فيها لذا فقد كان قاضيا لدى الدولة الموحدية **(ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، ص 7).**

ويعتبر الدكتور شوقي ضيف من أوائل من فجروا – في بدايات القرن العشرين– قضية النحو العربي وضرورة النظر في كثير من مسلماته إثر نشره وتحقيقه لكتاب **(الرد على النحاة)** ؛ ذلك الكتاب الذي نادى فيه صاحبه بإلغاء نظرية العامل في النحو، وما تقوم عليه

من تعليل وقياس، والاكتفاء بذكر القواعد مجردة.. فيقول في مقدمته للطبعة الأولى: «وقد سدد ابن مضاء سهام دعوته أو قل سهام ثورته إلى نظرية العامل التي أحالت كثيرا من جوانب كتاب النحو العربي إلى عقد صعبة الحل عسيرة الفهم.. إن كل ما تصوره النحاة في عواملهم النحوية تصور باطل...» **(ابن مضاء القــرطبي : الرد على النحاة ، ص 8)** «وليس هذا كل ما تجره نظرية العامل في كتاب النحو العربي؛ فهي تجر وراءها أيضا حشدا من علل وأقيسة يعجز الثاقب الحس والعقل عن فهم كثير منها؛ لأنها لا تفسر غامضة من غوامض التعبير، ولا دفينة من دفائن الأسلوب، وإنما تفسر فروضًا للنحاة، وظنونا مبهمة... وهذا كله أفسد كتاب النحو العربي إفسادًا؛ لأنه ملأه بمسائل ومشاكل لا نحتاج إليها في تصحيح نطقنا وتقويم لساننا » **(ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، ص 8)**

القواعد التي قامت عليها ثورة ابن مضاء:

وجد ابن مضاء الأبحاث النحوية ــ كأبحاث الفقه ــ تتضخم بتقديرات وتأويلات وتعليلات وآراء لا حصر لها، فمضى يهاجمها في ثلاثة كتب، هي: المشرق في النحو، وتنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان، والرد على النحاة وهذا الأخير هو الذي انتهى إلينا من آثاره، وقد أقيم الكتاب على أسس هي في الحقيقة انعكاسٌ لمذهب ابن مضاء في الفقه ، وعليه فيمكن أن نوضح تلك القواعد على النحو الاتي:

أ) **إلغاء العوامل ونظرية العامل:** بدأ ابن مضاء ثورته هذه بإلغاء العوامل النحوية حيث يرى أنه لا فائدة من التدخل في العامل الذي يؤثر على الحركة فيجعلها في حالة رفع أو نصب أوجزم ... يقول ابن مضاء: « قصدي من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحو عنه ، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه فمن ذلك ادعاؤهم أنّ النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي ومعنوي ، وعبروا عنه بعبارات توهم في قولنا (ضرب زيد عمرا) أن الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمرو إنما أحدثه ضرب. ألا ترى أن سيبويه – رحمه الله – قال في صدر كتابه: وانما ذكرت

ثمانية مجاز، لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدثه فيه العامل، وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه ، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك . فظاهر ذلك أن العامل أحدث الإعراب ، وذلك بين الفاسد » ((**ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، ص 76 – 77).** ومن هنا يظهر أن ابن مضاء أن العوامل يجب الاستغناء عنها لتيسير النحو آخذا بذلك من خلال ظاهر النص وأن العوامل غير بينة ولا يمكن التأكد مكنها.

ب) إلغاء العلة النحوية :

لقد كان المذهب الظاهري يدعو دائما إلى إلغاء العلل الفقهية ويدعو إلى التخلص منها ، فان ابن حزم يصف هذه العلة الفقهية بالفساد الذي يجب أن نتخلص منه (**ينظر : معاذ السرطاوي : ابن مضاء القرطبي وجهوده النحوية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع (1988) ط 2 ، ص 114)**، وكذا يدعو ابن مضاء القرطبي من إراحة الناس من العبث الذي يصيب جراء العلة الفقهية والنحوية عن طريق إلغائها نهائيا ، لكنه دعا إلى الأخذ بالعلة الأولى فقط وأما غيرها فهو باطل في نظره وعلم لا يضر الجهل به فقد قال : « ...أن يسقط من النحو العلل والثواني والثوالث ، وذلك مثل سؤال السائل عن زيد في قولنا (قام زيد) لمَ رُفِعَ الفاعل؟ فيقال : لأنه فاعل وكل فاعل مرفوع فيقول ولم رفع الفاعل ؟؟؟ فالصواب أن يقال له : كذا نطقت به العرب ، ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر » (**ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، ص 130).**

ومما يجدر الاشارة إليه أن إلغاء العلل الثواني والثوالث في أصول النحو والاكتفاء بالعلة التعليمية الأولي فقط مما ييسر على دارس النحو ويساعد بشكل كبير في تهيل النحو وتبسيط لا سيما على المبتدئين ، وتخليص جميع التعقيدات النحوية من الصعوبة لتي يكتنفها النحو التعليمي ، بعدا تأثر بالمذاهب الفلسفية ، وكأنه يدعو إلى الحديث بلغة العرب القديمة التي كانت تتحدث بالسليقة والفطرة الالهية دون النظر إلى الأسباب والمسببات .

ج) إلغاء القياس: تعتبر هذه الدعوة من الدعوات الأساس التي دعاها ابن مضاء في نظريته العامة من أجل تسيير النحو وتخليصه من التعقيدات ، حيث يقوم على قياس عامل بعامل آخر ، وهو ما رفضه جملة وتفصيلا على أساس أنه رفض في البدء نظرية العامل فلا يقاس على الشيء إلا إذا كان حكمه مجهولا والمقيس عليه معلوم الحكم وكانت العلة الموجبة للحكم في الأصل موجودة في الفرع **(ينظر: ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، ص 134)** وهي قاعدة فقهية قبل أن تكون نحوية ، ويعود السبب في ذلك قول شوقي ضيف في مقدمة الكتاب : « والعرب أمة حكيمة ، فكيف تشبه شيئا بشيء وتحكم عليه يحكمه، وعلة حكم الأصل غير موجودة في الفرع » **(ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، مقدمة المحقق شوقي ضيف ص 09).**

وما يمكن ملاحظته أن الدعوة لإلغاء القياس مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدعوة لإلغاء العلل والعامل في آن واحد وهي مفضية إليه بشكلها الجلي الواضح أن لم نقل إنها دعوة مبطنة.

د) الاعتراض على تقدير العوامل المحذوفة :

ارتكز ابن مضاء في هذه القاعدة على القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه ، فهو المصدر الأساس في العلوم النحوية وغيرها من العلوم الشرعية والقواعد الفقهية على اختلافها وقد قال رسل الله صلى الله عليه وسلم ﴿ **مَنْ قَالَ فِي القُرآنِ بِرأيهِ ، فَلْيَتَبوأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** ﴾ **(وراه الترمدي 2951 الترمذي : سنن الترمذي ، تح : محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، (1419 هـ– 1998م)، ط1، ج3 ، ص 239)** فيرى ابن مضاء أنه حينما ترى أن القرآن فيه المحذوفات فقد خالفت ووقعت في المحظور الذي يحشر صاحبه في النار ومثله مثل الذي ينى الزيادة في القرآن بلفظ كمن اعتقد أن القرآن يعتريه النقص اقل ابن مضاء: « ... ومما يدل على أنه حرام الاجماع وعلى أنه لا يزاد في القرآن لفظ غير المجمع على إثباته ، وزيادة المعنى كزيادة اللفظ بل هي أحرى لأن المعاني هي المقصودة، والألفاظ دلالات عليها ومن أجلها » **(ابن مضاء القرطبي : الرد على**

النحاة ، مقدمة المحقق شوقي ضيف ص 88) فابن مضاء رفض كل تلك التقديرات والمحذوفات ووقف إلى جانت النص اللغوي ، والتقديرات في نظره لا تستند إلى دليل علمي واضح بل هي ضرب من الظن والتخيلات ، وفي هذه القاعدة بالضبط يظهر تأثر ابن مضاء بالمذهب الظاهري الذي يرفض جملة وتفصيلا الزيادة في النصوص دون أي دليل وهو ما لا يقبله أهل الظاهر فالزيادة عندهم حرام **(ينظر : معاذ السرطاوي : ابن مضاء القرطبي وجهوده النحوية، ص 156)**

د) إلغاء التمارين غير المفيدة وغير العملية: دعا ابن مضاء في هذا المبدأ إلى إلغاء جميع التمارين التي لا تفيد وتزيد من تعقيد النحو وتجعله صعب المنال ، ويرى أن هذه التمارين ما تزيد إلا ثقلا للنحو وجهدا مضنيا وتعبا، وعليه فإنه يجب أن نخلصه من كل هذه الرواسب لإعادته لمجده الأول : « ابْنِ من البيع على مثال فُعَل فيقول قائل (بوع) أصله بُيْع فيبدل من الياء واواً لانضمام ما قبلها ، لأن النطق بها ثقيل » **(ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة، ص 142)** وقد ساق ابن مضاء الكثير من آراء النحويين في هذا الباب وأوضح فسادها من وجهة نظره – طبعا –.

إن دعوة ابن مضاء بإلغاء التمارين وتخليص النحو منها من الركائز الأساس التي تخفف النحو على المتعلمين لكي يتمكنوا من حفظ اللغة العربية ودعوة واضحة لتقبلها وعدم النفور من الثقل الذي يصيبها وهذا ما يدعون إليه الظاهريون في مذهبهم .

هـ) الدعوة إلى كل مالا يفيد نطقا : انهى ابن مضاء جهوده التيسيرية بدعوة عامة تمثلت في أن يسقط النحو كل ما لا يفيد نطقا في شتى مراحل العملية التعليمية للنحو كالتنازع الذي تركه لمقتضى الحال بدل الخوض فيه ، وسائر ما اختلف فيه النحاة مما لا يفيد نطقا **(ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة، ص 147)** والهدف من ذلك ما ذكرناه سابقا وكأنه يتحد بلسان طلابنا في هذا الزمان ، وهذا ايضا ما انتهجه المذهب الظاهري باحترام النص وعدم الخروج على ظاهره والاكتفاء بما قدمه النص فقط دون زيادة أو نقصان.

خاتمة :

ومع ذلك كله ما يمكن الخلوص إليه من خلال هذا البحث أن المذهب الظاهري انتشر بقوة في مرحلة ملوك الطوائف والأسباب في ذلك متعددة يمكن تلخيصها في ما يلي :

الصراع الذي قام بين هذا المذهب الظاهري وبين المالكية الذين كانوا منتشرين آنذاك والجدل الذي قام بينتهما سبب انتشار هذا المذهب من خلال محاولة الناس يدرسون هذا المذهب بأهداف متغيرة لعل بعضها بغرضي فضولي.

موافقة هذا المنهج بالذهنية الأندلسية التي لا تريد التعقيد في شتى مناحي الحياة وتريد الانطلاق للواقع دون معوقات بسبب الترف الذي عرفته بلاد الأندلس لامتلاك الحياة برمتها.

مساندة الدولة الموحدية لهذا المذهب وتبنيها له حيث تم استعمال الكثير من رواده في أعمال الدولة وعلى رأسهم ابن مضاء القرطبي التي استعمته هذه الدولة على قضائها .

تأثر الذهنية الأندلسية بهذا المذهب في شتى مناحي العلوم واختلافها لا سيما اللغة العربية التي تأثرت بشكل واضح وأخذت من الدراسات الفقهية المبادئ الأصولية وعكستها على اللغة العربية وجعلت منها مبادئ تيسيرية للنهوض بنحو تجديدي يسير على المتعلمين وقد ركزنا في بعثنا علة أنموذجا بينا وهو دعوة ابن مضاء الذي كانت جهوده كاملة متأثرة بالمذهب الظاهري وهو الأخذ بظاهر النص وقد وافقه في ذلك ثلة من علماء عصره.

قائمة المصادر والمراجع:

أ) المصادر:

01. ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، لبنان، مكتبة المعارف، 1991م.
02. ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، تح: شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط2 .

03. أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: احسان عباس، ج3، دار صادر، بيروت، ب ط، 1968م .

04. أحمد بكير محمود، المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب، دار قتيبة، بيروت–دمشق، ط1، 1990م .

05. الترمذي : سنن الترمذي ، تح : محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، (1419 هـ– 1998م)، ط1.

06. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين (2002) / ط15.

07. شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، لبنان، مؤسسة الرسالة، 1994، ط10.

ب) المراجع:

08. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة النهضة، القاهرة، ب ط، 1984م.

09. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي: الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر عصر ملوك الطوائف، لبنان، 1992، ج4، ط3.

10. فاروق عبد المعطي، أعلام الفقهاء والمحدثين. ابن حزم الظاهري. علي بن أحمد بن سعيد الأموي الأندلسي، لبنان، 1995م.

11. محمد المنتصر الكتاني: موسوعة التقريب: فقه ابن حزم الظاهري، القاهرة، 1992، ط1.

12. معاذ السرطاوي : ابن مضاء القرطبي وجهوده النحوية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع (1988) ط 2.